الحيـــاة المليئة

عندما نتأمل المخ ، أو بالأحرى قشرته الرمادية ، نجد شبكة من ملايين الخلايا التى تربط وتستطيع أن تؤلف ملايين الافكار والمركبات الذهنية الجديدة ولكننا نقنع من حياتنا العقلية العادية بالقليل من هذه الافكار . حتى لنستطيع أن نقول أن عشر المخ كان يكفينا . ولو أننا عنينا منذ ميلادنا بالحياة الفكرية ، وجعلنا التربية تتجه نحو الاستنباط والاختراع والتفكير البكر ، بدلا من التسليم بالعقائد والجرى على الاسلوب الاجتماعى الفاشى ، لو أننا عنينا بهذا لكان كل منا فيلسوفا أو عالماً مخترعا . لان فى القشرة المخية من ملايين الخلايا ما يتسع لملايين المركبات الفكرية . ولكننا نتركها بائرة فى جدب بلا حرث أو غرس . فلا نعيش ملء حياتنا الذهنية بل نقنع بالقليل منها .

وحياتنا الفكرية هى بعض حياتنا البشرية ، وإن يكن هذا البعض أفضل ما نملك . ونحن للأسف لا نعيش ملء حياتنا البشرية . فقد تطول حياتنا ولكنها لا يكاد يكون لها عرض أو هى تمتلىء بالسنين ولكن هذه السنين لا تمتلىء بالحياة . وقد دعانا الإنجيل إلى التوسع والتعمق فى الحيـــاة حين نبهنا إلى قيمة

« الحياة الوفيرة » وما الوفرة فى الحياة سوى وفرة الاختبارات بالنشاط والتجدد . فالحياة الراكدة أو الجامدة ليست وفيرة أو ، على الأقل ، ليست فى وفرة تلك الحياة التى تتذبذب طربا ومرحا فى الدنيا .

وهنا تخطر بالذهن كلمة « الحماسة » التى اختارها أبو تمام لمجموعة الأشعار التى جمعها من الشعراء الذين سبقوه . فان البيت الخالد من أبيات الشعر هو العدسة التى تجمع المتشتت من النور فى بؤرة مركزة ، فتحس العاطفة الذهنية فى حماسة تثيرنا طربا أو إعجابا أو تفكيرا . ومن الحسن أن ننقل هذا المعنى إلى الحياة . إذ يجب أن نعيش فى حماسة بلا ركود أو جمود أو تبلد . ويجب أن تكون حياة كل منا قصيدة من الشعر . بل يجب أن يكون لكل منا « بيت قصيد » أى هدف سام يتبلور فيه النشاط وتتجه اليه الحياة .

وهذه ، كلها من المعانى الفنية ، معانى الشعر ! التى يجب أن ننقلها إلى الحياة .

وعند التأمل نجد أن لنا ثلاث حيوات نمارسها جميعا . وهى فى صميمها ثلاث ذوات .

فان لنا الذات الصغرى الأميبية ، ذات الرجع الانعكاسى ،

التى نشاهدها فى الأميبة والاسفنج وأحط الأحياء .

ولنا الذات الصغيرة الحيوانية ذات الشهوات والغرائز ، للأكل والتناسل والتسلط ، التى نشاهدها فى الحيوانات الدنيا والعليا .

ثم هناك الذات البشرية ، ذات الوجدان أى التعـــقل والقدرة على أن نرى الدنيا بما يقارب حقيقتها عندما نتجرد من غرائزنا وننظر النظر الموضوعى .

والحياة المليئة هى الحياة الوجدانية التى تحملنا على التخلص من الأنانية الآسنة إلى الغيرية الحية فنتوسع ونتعمق بما يشبه البر الذهنى . كأن حياتنا ليست مقصورة على أبعادنا الجسمية الشخصية بل تشمل غيرنا من البشر . وقد تكون هناك حياة أملأ ، هى تلك التى يقول بها أو يبصر بها فرويد ويسميها « الحاسة الاوقيانوسية » أى زيادة فى الوجدان تجعلنا نحس الاندغام الشخصى فى الكون كله بحيث نحيى فى ذراته وجزيئاته وكواكبه ونجومه ونباته وحيوانه .

ولكن هذا حدس فقط . وقصارى ما نستطيع أن نقوله فى يقين أن الحياة المليئة تحتاج إلى سخاء وتفاؤل . لأن أعظم ما يحدد حياتنا ويقيم حولها السدود هو البخل . وهذا البخل ينشأ من التشاؤم الذى يحدث لنا الخوف من الاقتحامات فنقبل

ونجمد . ثم نعيش فى حياة ضنينة قليلة الاختبارات . وقد تنتهى إلى أسلوب من الزهد والنسك فنكاد ننكر الحياة

ولست مع ذلك أنكر قيمة النسك والزهد . ولكنهما يجب أن يكونا وسيلة وليسا غاية . أى أننا ننسك ونزهد ونعتكف كى نستجم ونعود إلى الاختبارات الفنية والذهنية والعاطفية . أى نعود بقوة متجددة . وكذلك يجب أن نمارس العفة حتى نسمو بالتعارف الجنسى إلى مستوى من التأنق والفن يرفعنا عن التبذل الرخيص للعاطفة . فنضع الوجدان والتعقل مكان الغريزة الغشيمة . فلا تكون العلاقة الجنسية نهبا وخطفا بل تأملا وحبا ، فنتحدى الجمال بوجداننا فى فن وتفكير إذا تحدى غرائزنا هو فى إغراء واغواء .

والحياة المليئة تحتاج — كما يجب أن نكرر — إلى وفرة الاختبارات . ومعنى هذه الوفرة أن نعيش لنتعلم وندرس الكتب والطبيعة والمجتمع . ونهتم بالسياسة والاقتصاد والتطور البشرى . نهتم بها جميعا متفرجين وعاملين . ونعيش فيها بروح الابتكار والتساؤل والاستطلاع حتى نفهم ويستيقظ ذكاؤنا وتستفيض شبكة المركبات الذهنية فى القشرة الرمادية المخية . وإذا ذكرنا البخل فلا نذكره بشأن الحرص على المال فقط .

وإن كان هذا أفشى مظاهره . لأن أسوأ ما فى البخل نزوعنا فيه إلى التبلد والاعتكاف الذهنى والعاطفى وكراهة الاختبارات فهو لا يعيش ملء حياته .

والحياة المليئة تحتاج إلى التفاؤل بالدنيا والمستقبل وإلى السخاء وإلى دوام الاستطلاع والنمو ؟

الهداية

فراغنا يزداد ، وسيزداد فى المستقبل أكثر فأكثر ، وسيكون ملؤه أو الانتفاع به من أعظم المشكلات فى التعليم والتربية بل سوف تكون الغاية الوحيدة من التربية هى الانتفاع بالفراغ. أى كيف نعيش ١٢ أو ١٥ ساعة كل يوم بلا عمل كاسب . أما التعليم الحرفى فلن تكون له هذه الأهمية .

وفى عالمنا الحاضر طبقة من الأثرياء تعيش فى فراغ كامل أو تكاد لأن وسائل العيش الممتاز موفرة لها . إذ ان افرادها يستغلون أفراد الطبقات الأخرى. ولكن عند ما نتأمل الطرق التى تتبعها هذه الطبقة الممتازة فى قضاء فراغها أو استغلاله نجد انها ليست مما يغرى . فان سباق الخيل وصيد الحمام والصيد بالقنص فى مطاردة الثعالب او الأرانب وقضاء الليل فى المقامرة او العربدة الجنسية أو الكثولية ، كل هذا أو اشباهه لا يدل على ان هذه الطبقة المترفة الممتازة قد عرفت شيئاً يمكن ان يوصف بأنه « فن الفراغ » بل هو يدل على ان هذه الطبقة لا تطيق فراغها ولا تستخدمه إلا على سبيل الفرار من الوقت بقتل الوقت .

وتطور الآلات والزيادة فى الأنتاج وتوافر الضروريات

لكل انسان ثم توافر الكماليات فى المستقبل ، ستجعلنا جميعاً فى شبه تعطل . لأن طرق الأنتاج العلمية التى لا مفر من استخدامها فى العالم كله قريباً ستوفر للانسان حاجاته بأقل الجهد فى أقصر الوقت . ولذلك سنجدنا جميعاً معطلين فارغين معظم النهار والليل نحتاج إلى مايشغلنا . فاذا لم نجد المفيد الذى يرفعنا ويرقينا عمدنا إلى المضر الذى يحطنا .

بل نحن ، قبل أن نفكر فى المستقبل ، نجد أن حاضرنا يوفر لنا ، أو بالأحرى لبعضنا من أعضاء الطبقة المتوسطة ، فراغا يترجح بين اربع وعشر ساعات كل يوم . فيجب أن نملأه وان نتعلم كيف نملأه . وعند الانجليز كلمة « هوبى » لما نسميه بالعربية « الهواية » اى العمل نعمله للذة فقط لا نبغى منه كسباً . وعند ما نملأ فراغنا بهواية نجد فى الفراغ تخفيفاً بل معالجة للتوترات التى نستجيب بها حانقين مرهقين لمصادفات الحياة المعاكسة المناوئة . وكلنا يعرف ان الحركة والنشاط والعمل كل هذه تخفف التوترات وتفرج عن العواطف المكظومة . فاذا كانت الحركة فى عمل محبب تتجه إليه الإرادة فى نشاط حتى تستحيل إلى حماسة ، فان الاتزان النفسى الذى ربما يتزعزع من ارهاق العمل الحرفى ، يعود إلينا فنستأنف هذا العمل مرتاحين مستجمين .

لهذا السبب يجب أن يكون لكل منا هواية . وأن نعلم أولادنا ، وهم فى الطفولة والصبا ، كيف يشغلون فراغهم . وأن ننفق بسخاء على ما يحتاجون إليه لشغله . وذلك لأن فراغهم فى المستقبل سوف يزيد على فراغنا نحن . وسوف يثقل عليهم ، لهذا السبب ، أكثر مما يثقل علينا .

وعلى القارىء أن يقصد إلى إحدى المكتبات فى القاهرة ويطلب إحدى المجلات التى تعالج الهوايات واسمها «هوبيس» وهى فى الأغلب انجليزية . ومن هذه المجلات يستطيع أن يستنير وأن ينتفع أو ينفع أولاده .

وأقرب الوسائل إلى الانتفاع بفراغنا أن تتعدد اهتماماتنا ودراساتنا وأعمالنا . أو ، بكلمة أخرى ، يجب ألا يكون طريقنا منفرداً فى الحياة . لا نعرف غير وسيلة واحدة للكسب والعيش ، ولا غير وسيلة واحدة للترفيه والترويح . إذ يجب أن يكون طريقنا مزدوجا بل خير لنا أن تتعدد الطرق .

وقلما يخلو بيت فى أوربا من غرفة يستأثر بها الزوج لا يجوز لزوجته أن تتدخل فى ترتيبها . وفى أغلب الأحيان تكون هذه الغرفة منزوية قريبة الى سطح البيت وهى مريحة فى فوضى الأثاث والأوراق . وهى ملجأ أو معتكف يلجأ إليها الزوج كى

ينفس عن كظومـــه أو يفرج عن توتراته . وهى من المرافق الاجتماعية التى تمهد العقبات وتسوى النتوءات التى تنشأ من العمل أو من العائلة .

وقد تكون الهواية دراسة أو دراسات معينة . ومعظم الذين يسعدون بشيوختهم ، حين يحيلهم المجتمع على التقاعد ، يكونون فى الأغلب قد هووا الدراسة فلازمتهم هوايتها إلى الشيخوخة . وهناك هوايات أخرى عملية كالنجارة أو تجليد الكتب أو ، للمرأة ، أنواع من التطريز والوشى والنسج .

وأذكر انى زرت ذات مرة أحد الأندية النسوية فى القاهرة فوجدت طرازاً جميلا خفيفاً من الكراسى عرفت ، حين سألت عن صانعه ، ان هذا الصانع موظف كتابى فى الحكومة قد هوى هذا العمل واتقنه لا يبغى منه فائدة مادية . ولكن الفائدة المادية جاءته عفوا بحيث يستطيع الآن أن يستغنى عن وظيفته الحكومية ويقتصر على النجارة .

والرجل ، او المرأة ، التى تشغله هواية مايسعد بفراغه . ويستطيع أن يفتن بهوايته ويتأنق فى أدائها لأنه لا يعجل ولا يهرول إذ هو فى فراغ ينبسط أمامه . فهو يتقن ويتأنق . وحبذا المرأة تشغل فراغها بهواية مفيدة ترتقى بها اجتماعياً أو انسانيا

وتجد فيها أيضاً ما يغنيها عن الاستماع للفارغات من النساء اللاتى يملأن فراغهن بالقيل والقال .

وربما لا يكون الزمن بعيداً حين تعلم المدارس وتخرّج تلاميذها أو طلبتها للحياة وليس للحرفة . وحين تعنى بالفراغ والهواية أكثر مما تعنى بالعمل والكسب. وفى هذه الدنيا الواسعه هناك لا أقل من مليون هواية تنتظر من يبحث عنها ويهتدى إليها . وقد تكون إحدى هذه الهوايات بذرة لإختراع أو اكتشاف جديد يحتاج إليه البشر . وهل فكرت أيها القارىء وذكرت أن كثيراً من المخترعات والمكتشفات إنما كان ثمرة إحدى الهوايات التى ملأت فراغ أحد الهواة ؟

وفى ظروفنا الاجتماعية الحاضرة يحتاج كل منا إلى هواية. أولاً لأن حياتنا حافلة بما ينغص ويبعث على توترات وكظوم مختلفة متكررة . والهواية هنا تخفف وتعيد لنا اتزاننا النفسى لأننا نجد فيها كل يوم انتصارا وحماسة . وثانياً لأننا نرتقى بممارسة هواية ما إذ نتعلم فناً أو أى مهارة أخرى تحرك ذكاءنا أو عضلاتنا . و ثالثا تحول الهواية دون الوقوع فى العادات السيئة.

وأنت أيها القارىء عندما تجول فى شوارع القاهرة وتجد المئات من الشبان السادرين الذين يقعدون على القهوات ويدخنون

فى ذهول كأنهم نائمون ، أو يكرعون الخمر فى غير مبالاة ، أو تجد النساء فى شجار سافر او مستتر ، فانك لابد عند التأمل واجد أيضاً انهم يكابدون توترات وكظوماً قد جهلوا طرق التخلص منها . وخير الطرق فى ظروفنا الحاضرة هو هواية لذيذة تملأ فراغهم

وكثير مما ذكرنا فى هذا الفصل قد سبق ان اشرنا إليه فى فصول سابقة . ولكنا احتجنا إلى جمع بعض الملاحظات هنا لما لها من الدلالة على قيمة الهواية .

الخلوة

يبدو الإنسان كأنه حيوان اجتماعى لا يطيق العيش منفرداً. وهو يعد الحبس الانفرادى أقسى أنواع الحجر والتقييد لهذا السبب . فان المسجون لا يطيق انفراده بين الجدران فى الزنزانة . ولذلك يعاقب المسجونون أحيانا بحرمانهم من رفقة زملائهم المسجونين ويوضعون فى الزنزانة . وحضارتنا ، ولغتنا ، وديانتنا ، وأخلاقنا ، تدل على الحياة الاجتماعية .

ولكننا ، لأننا نعيش فى مجتمع ، نجدنا منساقين فى تياراته ، آخذين بأساليبه ، معتمدين على قيمه وأوزانه . فتبرز فى وجداننا حقائق العيش والكسب والوجاهة والأبهة ونعمى عن حقائق أخرى أكبر قيمة وأعظم وزنا . أى أن الحقائق الاجتماعية التافهة كثيراً ما تغطى على الحقائق البشرية الجليلة .

ومن هنا قيمة الخلوة . فان التفكير بطبيعته اجتماعى ، أى أننا نفكر بالقيم والأوزان الاجتماعية بل بكلمات اجتماعية . ولكننا لا نحسن التفكير إلا فى الخلوة بعيدين عن صخب المجتمع وضوضائه . والخلوة والهواية كلتاهما ضرورية لنا كى نجد الاتزان النفسى والتأمل الفلسفى وكأننا بهما نبتعد عن المجتمع

ونستقل من جميع اعتباراته ونحاول أن ننحرف عن طرقه وأوضاعه كي نرى أنفسنا .

وإذا كانت الهواية تربينا لأنها تتيح لذكائنا أو عضلاتنا تدريبا وتبسط لنا آفاقا ، فان الخلوة تتيح لنا الوقت والانفراد كي نبحث من وقت لآخر عن مراسينا فى المجتمع ، بل فى الكون. لأنها تنزعنا من هذا الموكب الذى نسير فيه ، أو بالأحرى نتساق فيه ، ذاهلين إلى موقف الوجدان والتردد والتأمل والتساؤل : هل نحن على صواب أم خطأ ؟ هل عاداتنا ومألوفاتنا قد غمرت حياتنا حتى صرنا نعد العرف ناموسا أزليا والوضع القائم سنة مقدسة يجب ألا تتغير ؟

والتأمل فى الخلوة يرفعنا فوق هذه الاعتبارات لأننا نحاول أن نفهم الفهم الموضوعى ، فهم الوجدان والتعقل ، بدلا من الفهم الانسياقى الاجتماعى . كأننا بهذه الخلوة نأخذ من المجتمع « إجازة » كي نفكر وحدنا بلا تدخل منه . فنعتكف ونقارن بين القيم القديمة والقيم الجديدة . وبين ما يجرى وما يجب أن يجرى . وبين القيمة الاجتماعية والقيمة البشرية . والخلوة هى التى تحملنى مثلا على أن أحس أنى لست مصريا فقط إذ أنا قبل ذلك بشرى أنتمى إلى ٢٢٠٠ مليون إنسان وليس إلى ١٧ مليون مصرى فقط.

وهؤلاء هم عائلتى الكبيرة التى ترتفع فوق الوطنية والمذهب والسلالة واللون . هم البشرية التى توج بها التطور بعد ألف مليون سنة من الكفاح البيولوجى هذا الكوكب . وهم الذين أفكر فيهم حين أتخيل الإنسان بعد مليون سنة .

وما أبدع غاندى حين يصرّ على أن يختص بيوم كل أسبوع يصوم فيه عن الكلام . فلا يخاطبه أحد ولو لم يختل ولم يعتكف . لأنه فى هذا الصمت يجد خلوة ذهنية يستطيع أن يفكر فيها دون أن يرتطم ذهنه بسؤال أو اعتراض أو اعتبار .

وكل منا محتاج إلى مثل هذا اليوم الأسبوعى . ولكن الخلوة يجب أن تكون مادية لأننا لم نرتفع إلى مقام غاندى حتى نأمر فنطاع أى نطلب ألا يخاطبنا أحد فيسمع لنا . وإذا نحن اختلينا وانفردنا وجدنا هذه الفرصة . ويحسن أن نختلى بلا كتاب أو جريدة . ولكن مع ورقة وقلم كى ندون ما يستحق من أفكارنا الطارئة . وقد عرفت اللغة العربية كلمة « خلوتى » وهى صفة المتصوف الذى كان يخلو ويعتكف كى يتأمل منفرداً دون أن يشغله شاغل بشرى أو مادى . وفى حياتنا مشكلات كثيرة تطالبنا بأن نخلو ونفكر : ماهو الدين ؟ ما هو الشرف؟ ما هو الكون ؟ ماذا بقى لى من العمر ؟ وماذا أنا فاعل به ؟

وما هو برنامجى : برنامج الحياة ، فى السنوات الخمس القادمة ؟ هل درست ديانتى ؟ هل درست الفلك وهو أقرب العلوم إلى الديانة ؟ هل حياتى الماضية أو الحاضرة يصح أن تستمر كما هى فى المستقبل ؟ أو هل يجب أن أتغير ؟

ومثل هذه المشكلات تحتاج إلى الخلوة لأنها بشرية كونية لا تضيق ولا تحد بالاعتبارات القومية أو الاجتماعية . والذهن الناضج لا يفتأ يفكر فيها ولكن لا يحسن التفكير فيها إلا فى خلوة . وقد كان جيته يقول : « بدون الوحدة التامة لا أستطيع أن أنتج شيئا بتاتا »

والواقع أن كل مفكر ، يرتفع إلى مستوى عال من المركبات الذهنية ، يحتاج إلى خلوة من وقت لآخر . وإذا نظم كل منا خلواته وجعل لها ميعاداً معينا ، مرة فى الشهر أو فى الأسبوع ، ويوما كاملا أو بعض يوم ، فانه يجد أنه فى مراجعته لحياته الماضية ، وفى تبصره بالمستقبل ، قد اهتدى إلى أساليب وأهداف ما كان ليصل اليها لو انه استسلم وانساق فى المجتمع .

وهذه الحياة الاجتماعية التى تلابسنا فى البيت والقهوة والنادى والمكتبة ، بل حتى فى الجريدة والكتاب ، تحول دون التفكير المثمر وتشغلنا بتوافه وصغائر تتبدد بها حياتنا . ولكن

الخلوة تجمع تفكيرنا فى بؤرة وتفتح لنا نوافذ على فضاء آخر قد نجد فيه ما نتغير به إلى أحسن .

وليست الخلوة التى نقترح بالشىء الجديد . لأن الواقع أن كلاً منا يخلو ويعتكف من وقت لآخر . فان أحدنا يخرج إلى قهوة نائية كى يخلو ويفكر . وعقب الغداء قد نتسطح فى الفراش لا لننام بل لنفكر فى موضوع معين . بل ربما قصد أحدنا إلى طريق متنح كى يمشى فيه منفردا للتفكير . وهلم جرآ . فنحن نحس الحاجة الى الانفراد والخلوة ونمارسهما دون أن نحتاج الى ارشاد . ولكن اذا جعلنا خلوتنا معينة بمواعيد كان ذلك أنجع لتفكيرنا وأنظم لحياتنا ؟

قيمة الحب للحياة الفنية

كلمة «الحب» من الكلمات التى تتعدد معانيها وتختلف . ولذلك احتاج مترجم الانجيل إلى أن يستعمل كلمة «المحبة» للمعنى المسيحى الخاص . وهذا التعدد يتضح عندما يقول أحدنا : أنه يحب البرتقال . أو يحب زوجته . أو يحب النظام . أو يحب الله. فاننا هنا ازاء طائفة من المعانى المختلفة التى كان يجب أن يكون لكل منها كلمة خاصة .

ونحن نقتصر هنا على معنيين هما الحب الجنسى والحب البشرى . فان كثيرين من المفكرين يرجعون حب البشر، الاخاء والصداقة والتعاون ، إلى الحب الجنسى . كأن هذا هو الجذر الذى إليه ترجع عواطفنا البشرية السخية. ولكن الحقيقة أن كلا منهما يرجع إلى أصل منفصل من الآخر . فغاية الحب الجنسى هى التناسل. وغاية الحب البشرى هى تكبير الشخصية والتعاون الاجتماعى والرقى العائلى والنمو الذهنى .

وليس هذا الذى نسميه «حباً جنسياً» ضروريا للتناسل . فان السمك مثلا يتناسل بالملايين . ومع ذلك لا يعرف الحب. لأن الذكر يلقى بحرائمه فى الماء . وكذلك الانثى تلقى بويضاتها فى الماء مثله . ثم يتم التلاقيح فى الماء دون أن يعرف الذكر الأنثى.

وعندما نتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد أن العاطفة الغالبة والتى تتضح من سلوكه هى عاطفة الافتراس والأكل والالتهام. فان الذكر يفترس الأنثى وليس بين الاثنين حنان . وأحيانا ينقلب التلاقح إلى شجار وقسوة وافتراس . وإذا كان الحب الجنسى بين البشر قد خالطته رقة وحنان أو عطف فإنما مرجع ذلك إلى الثقافة الاجتماعية التى ارتقت بها عواطفنا .

أما الحب البشرى فمرجعه إلى ينبوع آخر هو حب الأم لأولادها . وحب هؤلاء لها . وهذه العاطفة بعيدة جدا عن الحب الجنسى . إذ هى تتضح حناناً ورقة وهى تحمل الأم والأبناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا .

والإنسان البدائى كان دائم الارتحال . فكانت الأم مع أولادها ترعاهم وتربيهم . وكان تعلقهم بها يحملهم أيضاً على أن يتعلق أحدهم بالآخر . فاذا ماتت الأم مثلا بقى الأبناء على قواعد رفقتهم السابقة يتعاشرون ويتعاونون . وهذه الأخوة بينهم هى أصل الاخاء البشرى بل أصل المجتمع .

بل نستطيع أن نزيد هذا التمييز بأن نقول إنه إذا أحب الرجل المرأة حباً عميقا بشريا فان هذا الحب يحول دون الحب الجنسى . كأن هناك تناقضاً بين الاثنين : الأول كله حنان

ورقة . والثانى بعضه افتراس وقسوة .

وعندما نتأمل الحب الجنسى نجد أنه غريزة ذاهلة . ولكن الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد وننمو بالحب البشرى الذى ترتقى به شخصيتنا . لأن هذا الحب يستنبط منا أحسن الخصال فى الحنان والرقة والظرف والكياسة بل أحيانا فى التضحية . وهذا الحب هو الذى يجعل الإنسان إنسانيا . وما ندعو اليه من إخاء بشرى ، أو ما نقدره من خصال فى صديق ، أو ما نتعلق به من آمال نرضى بأن نضحى لتحقيقها ، إنما كل هذ يعود الى الحب البشرى الذى كسبناه من عواطف الأمومة والبنوة .

قلنا أن الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد فهماً بالحب . لأن الحب ينبه الذهن ويوقظه . وهو هنا نقيض الحب الجنسى الذى ننساق فيه بالغريزة . ولذلك أيضا كثيراً مانجد أن بذور العبقرية ، أوعلى الأقل النبوغ ، تعود الى الحب . لأن الصبى الذى يحب الطبيعة ويجمع الأحياء أو الزهور أو الأصداف والمحار ، هذا الصبى يحدوه حب بشرى قد استحال الى حب للطبيعة ينبه ذكاءه ويبسط آفاقه ويكبر شخصيته . وهو بهذا الحب أقرب مايكون الى النبوغ أوالعبقرية . لأنه ، بالحب ،

يرى أكثر ويفهم أكثر . كما ترى الأم فى ابنها وتفهم أكثر مما يرى غيرها فيه للحب الذى تحس به نحوه .

والحياة الفنية تطالبنا بأن نجعل الحب شعارنا . لأنه ، أى الحب ، يملأنا تفاؤلا فنبتعد عن الخوف والقلق والشك ونستكثر من الأصدقاء أو على الأقل نلتزم أصدقاءنا ونخدمهم فى سرور . واذا جعلنا أساس علاقتنا بالناس والدنيا حباً فاننا لانسأم الحياة ، بل نجد كل ما فيها يدعو الى العطف والفهم .

ولكن الحب مثل الشجاعة ، يحتاج الى تدريب . وصحيح أننا نكسب شيئاً من الحب العائلى أى من علاقتنا بالأم والاخوة والأب ، ولكن هذا الذى نكسبه عفواً فى طفولتنا وصبانا يحتاج الى الرعاية والتنمية . ونستطيع أن نتعود الحب بالصداقة والتعاون والضيافة والخدمة حتى ولو كانت طفولتنا قد أهملت أو كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب .

والرجل الذى تنبعث فيه عاطفة الحب نحو المجتمع أو البشر هو أقرب النـــاس الى السعادة وهو أبعد الناس عن الشقاء النيوروزى . وكلمة السعادة من الكلمات التى يجب ألا نخلطها بإحساس السرور . ولكن الحب يبعث السعادة الحقة الدائمة أكثر مما يبعثها السرور الزائف الزائل .

ومن هنا تأكيد الأديان جميعها للحب . إذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب . لأن الدين ينشد السعادة . والحب، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة . وعبارة « المركبات الذهنية والعاطفية » تحمل معنى توضيحيا للحب . ذلك ان الحب يحتاج الى تربية كما يحتاج الى مرانة . ويجب لذلك ان يكون مثقفا من ناحية بالتربية وعملياً من ناحية اخرى بالمرانة .

فنحن نعرف ان الرجل المثقف الذى يتجه الوجهة العالمية ويدرك المغزى للتطورات البيولوجية والتاريخية ويدأب طوال عمره فى درس الشئون البشرية ، مثل هذا الرجل المثقف يحب، لأنه يعرف ، اكثر من غيره . وقلبه سمح لأن قلبه أعرف . فاتساع المعرفة سبيل الى اتساع الحب . ولهذا السبب ايضاً يعد الأدب فى صميمه، والفلسفة فى صميمها ، دعوة الى الحب البشرى والخير العام .

ولكننا نحتاج ، كى نجعل الحب مزاجنا النفسى واتجاهنا الأخلاقى ، الى المرانة . أى يجب ان نؤدى عملا ما يحمل معنى الحب . وكل منا يستضىء هنا بمعارفه السابقة لأنه على قدر هذه المعارف يكون الضوء المنير الذى يعين الهدف والسلوك . وقد

يقنع احدنا بالإحسان لمعاونة الفقراء . او الانضواء الى جمعية لمنع القسوة على الحيوان او معاونة الصبيان المشردين او نحو ذلك . ولكن هناك من يعرف اكثر لأن ثقافته اوسع واعمق وهو لذلك انفذ بصيرة فى الأسباب التى تجر البؤس والمرض والرجعية والجهل . وقد يجد ، لهذا السبب ، ان الدعوة الاشتراكية والكفاح لنشرها ، خير الأعمال التى يجب ان يقوم بها لأنها جماع الإصلاحات التى ينشدها غيره متقطعة مجزأة . وقد يجد عملا آخر . ولكن المهم اننا نحب بممارسة الحب . وان هذه الممارسة تزيد حبنا للبشر كما تزيدنا فهماً وسعادة ولو شاء أحدنا أن يصف الدين الذى يؤمن به دون أن يعين اسمه بأنه دين الحب ، لقال أحسن ما يقـــال وأسمى ما يقال عن الدين .

من التبلور إلى التجوهر

عندما يأخذ الكيماوى فى تحليلاته لأحـــدى المواد التى يقصد إلى عزلها يكون منتهى ما ينشد من نجاح أن يبلورها . أى يخرجها نقية خالصة من الاخلاط التى كانت تشوبها وهى خامة . وهذا التبلور هو محاولة للوصول إلى الجوهر أى هو تجوهر .

ونحن البشر فى حياتنا المدنية نولد وننشأ فى وسط المدينة أو الريف . فاذا كنا أطفالا تشابهت تقاسيمنا وملامح وجوهنا كما تشابه سلوكنا إلا القليل جداً ، والذى تبرزه فروق الوراثة . فنحن فى الطفولة مواد بشرية خامة لم تتبلور أو تتجوهر .

ثم ندخل المدارس ونحترف الحرف ويؤثر الوسط الخاص اثره فى كل منا فنختلف . هذا تاجر وذاك محام . وهذا حوذى وذاك مزارع . وهذا كاتب موظف وذاك مهندس حر . وكل من هذه الحرف يطبع طابعه فى تقاسيم النفس والجسم . ثم تمضى السنوات ، عشرون أو ثلاثون سنة ، ونحن نلتزم حرفة بسلوكها واخلاقها التى تقتضيها . وبمرور هذه السنين نتكشف كالزهرة من التعميم إلى التخصيص ومن الحال الخامة إلى حال التبلور . وكأن هذه الاختبارات التى تمر بنا تصهرنا وتخرج منها الجوهر

الخاص ، اجل . هو الجوهر ولكنه جوهر الحرفة وليس جوهر الشخصية .

لذلك عندما نتأمل أحد الناس، الذين التزموا حرفة ما ثلاثين أو اربعين سنة ، لا نكاد نخطىء فى تعيين حرفته دون أن نحتاج إلى سؤاله عنها . لأنها تخبرنا وهو يتحدث لأن لهجة الحرفة غالبة عالية . كما نجد من ايماءاته واختيار أحاديثه جميع الأمارات التى تعلن عن حرفته .

وبخلاف هؤلاء نجد أن ذلك الشخص الذى تقلب فى حرف كثيرة ، فهو بقال ثم سمسار ثم كاتب ثم صانع ثم مزارع، مثل هذا الشخص لا يتبلور . فاذا قعدنا اليه لن نعين حرفته . ذلك أن اهتماماته الحرفية لا تتجمع فى بؤرة بل تتشعع هنا وهناك . ولذلك أيضاً لا يترك فى أذهاننا ، من حيث الحرفة، صورة معينة

ولسنا بهذا الذى ذكرنا نؤثر ذلك الملتزم لحرفة ما على الآخر الذى تقلب وتغير . وانما نريد أن نبين أن هناك تبلورا أو تجوهرا نكسبه من الحرفة التى نلتزمها سنين كثيرة . كأن الحرفة قد استصفت جوهرها وعينته ونحت عنه الزوائد .

وعندما نتقدم فى السن، ونكون قد عنينا بتربية أنفسنا وتنمية شخصيتنا ، نجد أننا أيضا نتبلور ونتجوهر . ولكن ليس

من حيث الحرفة فقط بل من حيث الشخصية . وصحيح أن الحرفة هى بعض المؤثرات فى الشخصية . ولكن هناك مؤثرات اخرى عديدة إلى جانب الحرفة . وهى تبلورنا وتجوهرنا.

اعتبر شاباً فجاً خاما واعتبر أيضا رجـــلا فى الخمسين قد نضجت اخلاقه وأينعت شخصيته وقارن بين الاثنين . تجد أن الأول لايزال فى التعميم . فهو « أحد الشبان » أما الثانى فقد تخصص وله مغزى وهو رمز إلى أشيـــاء عدة لها قيمتها الاجتماعية أو الثقافية .

وهذه الرمزية وهذا المغزى هما ثمرة الحياة الحيوية ، الحياة الفنية ، التى قضيناها ونحن نقصد إلى غاية ونتبع نهجاً ونكسب الاختبارات وننمو بها . وهى جميعا تصهرنا وتحيل التبر الى المعدن الخالص .

وإذا كانت غايتنا أن نصل إلى الشخصية اليانعة وأن نتبلور إلى الفكرة الجوهرية وأن يستحيل وجودنا فى مجتمعنا الى مغزى ، فان التزام الحرفة الواحدة قد يكون عندئذ معرقلا أو مبطئا لانه يحد من حيويتنا واختباراتنا . اجل . يجب أن تكون الحرفة بعض ما يكون شخصيتنا وينميها ويبرز المغزى فى حياتنا . ولكن يجب الا تكون هى كل شىء .

وفن الحياة يقتضينا أن نرقى الى السنين ونسير فى التعمير ونحن على الدوام فى ازدياد التبلور والتجوهر ننفى الزيادات ونطلب الخلاصة . وفى حياتنا اشياء كثيرة من هذه الزيادات التى تنمو علينا كما تنمو صغار المحار والودع على السرطان فى البحر فتعوق سباحته وتتطفل على جسمه . فهناك مثلا التزامات « اجتماعية » تبعثر وقتنا . وهناك « مشاغل » مالية تستهلك طاقتنا الحيوية . بل هناك مطامع نشأت ونمت معنا بقوة التكرار وحكم العرف الاجتماعى اذا تأملناها بعد الخمسين الفيناها عقيمة تشغلنا عن الجوهر والخلاصة وتمنعنا من أن نعيش المعيشة الوجدانية اليقظة فيما بقى لنا من عشرين أو ثلاثين سنة .

لنكن أدباء وشعراء

ينشأ الترف للخاصة التى يتوافرلها الفراغ والمال فتستطيع أن تعيش فوق مستوى الكفاية والضرورة وتطلب ما نعده من الكماليات والزيادات . وأدوات الترف فى أيامنا كثيرة وهى تختلف من الطبق الصينى الذى يومىء بزخرفته الى عصر مضى، الى بساط ايرانى تزدهى ألوانه ، الى غير ذلك مما لا يزال يقتنيه الأثرياء . بل حتى الكتب القديمة قد أصبحت نوعا من الترف يشتريه الاثرياء ويحفظونه قنية تورث كأنها بعض الجواهر .

وأدوات الترف هذه تقتنى . ولكن هناك ألوانا من الترف تمارس كالأدب والشعر وسائر الفنون الجميلة . وصحيح أن هناك من يحترفونها ويجدون فيها ضرورة العيش ووسيلته بل يجدون فيها أيضاً ضرورة الحياة لأنهم ينفسون بها عن كظوم نفسية . وعلى ذلك ليست الفنون الجميلة عند من يحترفونها ترفاً . ولكنها كذلك عند من يهوونها أى يجعلون منها هواية ينفقون عليها من وقتهم ومالهم . يشترون الكتب الأدبية كى يقرأوها ثم لا يكتفون بهذا بل يحاولون أن يكونوا أدباء وشعراء وفنانين. وهذه المحاولة ، وهى فى الأغلب محاولات عديدة ، تنتهى الى

أن تكون ممارسة مزمنة ، هى نوع من الترف . لأن الممارس لهذه الفنون لا يتخصص . إذ هو فى الأغلب موظف فى الحكومة أو فى شركة . وقد يكون معلما أو طبيباً أو تاجراً . ولكنه منذ فجر شبابه التفت الى لون من التأنق الفكرى عند أحد المؤلفين فاستهواه وجذبه وحمله على الاستزادة من القراءة والاطلاع . ثم بعد ذلك أخذ التأليف يداعبه فصار يكتب المقالة أو القصة ويقرض البيت أو البيتين . بل هو ربما يعمد الى التوسع الفنى فيسأل عن الموسيقا والمسرح وينتقد ويتحرى الاصول ويحاول التعمق . وهو هنا لا يبغى كسباً من هذا المجهود اذ هو لا يريد احتراف الفن لأنه قانع بأن يكون هاوياً لا أكثر .

وثق أيها القارىء أن هذا الهاوى الذى لا يكسب قرشاً من هوايته ، بل لعله ينفق الكثير عليها باقتناء الكتب ، هذا الهاوى لا يضيع وقته . لانه بهوايته هذه يرتفع الى أسمى ماوصل اليه التأنق الذهنى . ذلك ان الشاعر يتخير من الكلمات والمعانى ما يسمو على المبتذل المألوف . والأديب يحاول أن يجيل هذه الحياة التكرارية الآلية الى قصيدة فنية . وكذلك الشأن عند جميع الفنانين . والهاوى الذى يغمره هذا الجو ويعيش فى

هذا المناخ ينتهى الى ان يتنفس هواءه ويأخذ بمقاييسه . وعندئذ ينتقل التأنق فى التعبير الى التأنق فى الحياة . ويعيش عندئذ حياة مترفة تبدو لغيره مثل سائر الحيوات ولكنهـا فى الصميم فن وترف فى التفكير . ذلك أن الأديب يعيش من يده الى فمه كما هو الشأن فى سائر الناس من حيث النشاط الذهنى . لأنه بهذا النشاط قد استطاع ان يخلق لنفسه عالما آخر يجترّ فيه أفكاره ويتخيل ويتأمل ويذكر الماضى ويبصر بالمستقبل ويدرس فى تعب أو لذة . ثم يقيس حاضر المجتمع وواقعه بما ينبغى أن يكون . وهو قد وجد فى الادباء والشعراء القدامى والعصريين من حدثوه أحاديث الكمال والسمو والعدل والشرف والانسانية والرقى . فهو بهذا كله يجد فى نفسه كظوما تحمله على التفريج بالكتابة . وقد ينجح ويعود أو يبدأ يصف الدواء لمساوىء عصره . وقد لا ينجح فى الوصول الى الجماهير ولكنه مع ذلك قد دخل مدينة الفن والأدب والشعر واستمتع بما فيها من كنوز . وهو لن يخرج منها طوال حياته ولن يهجرها الى غيرها .

أنى أقصد أن يبدأ كل شاب حياته الوجدانية بالتعرف الى الاداب والفنون . يبدأ متفرجاً متنزهاً . ثم يتدرج محاولا

ثم ينتهى كاتباً . وأقصد أيضاً أن يبدأ الشاب وهو يجد الفن أو الشعر أو الأدب فى الكتاب ولكن يجب أن ينتهى بان يحاول ايجاد الفن والشعر والأدب فى حياته . أجل ، هذه الحياة يجب الا نتركها تجرى فى نثر مبتذل بل نجعل منها قصيدة أو على الأقل نجعل بعض الأبيات العالية تتخلل هذا النثر . فنعيش ولو لحظات فى حياتنا نحس فيها المجد والقداسة والبطولة ونرى الجمال يشع من قلوبنا .

وهنا يضحك بعضنا ساخراً ويقول : هذا خيال . انما الحياة مجهود نجمع فيه ونكمن لليوم العصيب والأزمة الطارئة وليست الحياة قضاء الوقت فى تأليف الشعر .

وجوابى انى لا أنكر قيمة المجهود نبذله كى نكفل الطعام واللباس والسكنى . ولكن هل معنى هذا ان نقضى العمر كله فى الاهتمام بالطعام واللباس والسكنى ؟

ان الانسان لا يمكن أن يكون إنسانيا إذا اقتصرت اهتماماته وهمومه على الطعام واللباس والسكنى . وانما هو يرتفع إلى الانسانية عند ما تجد الثقافة الفنية ، ثقافة الترف الفكرى ، مسكناً فى ذهنه تأوى إليه بل تمرح فيه وتمتزج بخلاياه وتعود جزءاً لا ينفصل من حياته يوجهه ويكيفه ويعين له التصرف والسلوك ، أى يجعله ويضطره إلى أن يعيش المعيشة الفنية .

أعرف شابا لا يبالى أن يتغدى بأى طعام يكسر حدة الجوع. ولا يبالى أى لباس يتخذ ومسكنه غرفة فوق سطح أحد المنازل. وهو بهذه المعيشة غير متمدن أى أنه لا يستمتع بمتع الحضارة فى السكنى واللباس والطعام. وهى متع لا تنكر قيمتها. ولكن هذه القيمة صغيرة جداً إلى جنب المتع الثقافية الفنية التى يلمع بها الذهن وتسمو بها النفس. والمقارنة بين الذهن المثقف وبين حضارة السكنى والطعام واللباس هى أشبه المقارنات بنظافة الجسم إلى نظافة اللباس. وقد كان هذا شأن هذا الشاب. فانه على الرغم من تقتيره فى هذه الأشياء أو بالاحرى اهمالها كان لا يترك كتاباً يستحق القراءة إلا كان يقتنيه. كما كان لا يتأخر عن شراء التذكرة الغالية لحضور حفلة موسيقية. وكنت أجده زرى الهيئة نحيلا ولكن ذهنه حافل بالأثاث العصرى للثقافة ونفسه فنانة لها قدرة كبيرة على التميز الفنى. ولذلك كان فقيرا بوسطه غنياً بنفسه.

وقد يكون هذا المثال متطرفاً أو مسرفاً. ولكن الحياة الراقية تحتاج إلى أن نمارس فنا جميلا ينعكس أثره فى نفوسنا وعقولنا. فيجب الا نقرأ الشعر والأدب فقط بل نحاول ممارستهما. أجل. يجب أن نكون كلنا أدباء وشعراء نكتب الأدب ونقرض

الشعر . بل أكثر من هذا . ننقل الأدب والشعر الى حياتنا . ليؤلف كل منا حياته . فنحترف المجد ونمارس القداسة وننزع الى البطولة فى الدفاع عن حق أو الانتصار لمظلوم ونفكر فى اسمى المعانى ونعبر بأنصع الكلمات .

واولئك الذين ينشدون السعادة ولا يعرفون ما هى قد يجدونها فى ممارسة الآداب والفنون من حيث لايدرون . وخاصة اذا انتقلت هذه الممارسة من اللهو والتسلية الى الكفاح والدعوة لعالم اسمى ، أى عالم يعيش فيه الناس على مرتبة سامية من الحضارة الفنية .

السعـادة

السعادة هي سلام النفس . وأول ما يجب أن نعرفه عنها أنها ليست مادية . ويجب أن نميز هنـا بين السعادة والسرور لأنهما كثيرا ما يشتبهان . ذلك أن السرور ، أو اللذة ، مادية . أما السعادة ففكرية . فنحن نسعد بالفكر أو بالإيمان أو الرؤيا أو الأمل بحيث يحفزنا واحد من هذه الأشياء الأربعة إلى كفاح. ولكننا نسر ونلتذ بالطعام أو اللباس أو المـال أو الشهوات الجسمية .

والمسرات واللذات ، لأنها مادية ، تتوقف على جوع يشبع أو طمع يحقق ، ثم تؤجم في النهـاية أو تؤدي إلى السأم . ولكن السعادة ، لأنها فكرية تنهض على إيمان أو كفاح أو اتجـاه ، لا تؤجم ولا تؤدي إلى سأم . فالقديس مثلا سعيد بإيمانه وهو يستشهد في فرح وطرب . وسعادته هنا فكرية . ولكن لذة الطعام تنتهي عند الشبع ، وقد تحدث صدوداً .

وهناك اعتبارات أخرى تجعل السعادة دائمة باقية والسرور وقتيا زائلا . ذلك أننا حين نسعد بالفكرة لا يعيق سعادتنا حد أو غيرة أو مقارنة مهينة لنا بغيرنا أو إحساس النقص بأن

هناك من يحوزون أكثر مما حزنا . فقد أسرّ لأنى اشتريت عزبة أو اقتنيت أتومبيلا أو غير ذلك من المقتنيات المادية . ولكنى فى هذا السرور أحس أيضاً أنى كنت أكون أكثر سروراً لو لم... فان العزبة كانت تكون أسرّ لى لو كانت أكبر وأخصب . وكان الأتومبيل يمتعنى أكثر لو كان من طراز آخر . وهلم جراً . ولكن السعيد بفكرة ما لا يحسد ولا يغار ولا يحب أن يستأثر بفكرته . بل هو يحب العكس . وهو أن جميع الناس يسعدون بمثل سعادته ، كما يحدث لأحدنا حين يطرب لاستماعه إلى لحن جميل ، أو لأنه يتأمل مبنى عظيما ، فإنه يحث رفيقه على ان يستمع أو ينظر ويتأمل .

والسعادة ، كالشعر عند اسحق الموصلى ، أيسر مما نظن . فهى لا تحتاج إلى التكلف أو المشقة . بل ان السرور أدعى إلى التكلف او المشقة من السعادة . وذلك لأن السعادة ذاتية ، فى ذوات انفسنا ، إذ هى حال معينة او اتجاه معين . اما السرور فمادى نحتاج فيه إلى الاقتناء .

وقد يكون ايضاً من الحق ان نميز بين السرور والسعادة بأن نقول ان السرور اشتهائى غريزى يتعلق بما نأكل او نلبس او نسكن او نقتنى . ولكن السعادة وجدانية مرجعها الفكر

اى العقل . والسعادة لهذا السبب تحتاج إلى التربية الفنية . بل إلى المعارف العلمية التى تكشف عن خبايا وكنوز لا تصل إلى إلى كنهها الغرائز . فأنا حين امارس الزهو الاجتماعى باقتناء الاثاث الفاخر او بالقيام بالضيافة المطهمة اونحو ذلك أمارس نشاطا غريزيا شهوانيا له ذيول وهوامش من الغيرة والحسد والطمع. أى أنه سرور معلق ولا احتاج ان اتعلم كيف أمارسه ، ولكنى حين اقعد إلى جدول الماء واتأمل الطبيعة وهى ترعى وتزبد فى الحقول ايام الربيع واتابع فراشة فى نشاطها الغذائى اوالجنسى ، احس سعادة مطلقة . سعادة مخية وجدانية وليست غريزية شهوانية . وهذه السعادة تحتاج إلى تعلم .

وإذا كان القارىء قد تابعنا فى منطقنا فانه يستطيع ان يعرف لماذا نكون سعداء عندما نتأمل مقطوعة فنية من الشعر أوالرسم أوالبناء أونستمع إلىمقطوعة فنية من الغناء أوالموسيقا. فنحن هنا ازاء سعادة مطلقة هى فوق الشهوات الغريزية . ونحن لانأجم هذه السعادة ولانملها كما أنها لا تبعث فينا غيرة أوحسداً أو طمعا . ومن هنا سعادة الفنان وسعادة الفيلسوف ، كلاهما سعيد بفكرته . بل ان العالم الذى يبحث موضوعاً علمياً سعيد أيضاً بعلمه لأنه يحاول كشف سر من أسرار الطبيعة المغلقة . فهو هنا

كالقديس يرى رؤيا ويعتقد أنها ستتحقق .

وليس شك أن السعادة هى سلام النفس . وهل شك أحد فى أن سلام النفس هو فكرى وليس ماديا ؟

والعجب أن المتع الحقيقية فى هذا العالم ، تلك المتع التى نسعد بها أسهل حصولا وأرخص قيمة من المتع الزائفة التى قصارى ما تؤدى أننا نسر بها سروراً وقتيا زائلا . وهى يجب أن تكون كذلك لأن السعادة فكرية ، والفكر لا يكلفنا مالا ولكن السرور مادى يكلفنا مالا وجهداً . وأحيانا تفوتنا فرصة السعادة ، فرصة الحياة الفنية ، لأننا استغرقنا حياتنا فى السرور واللـــذة .

ونستطيع أن نعود هنا إلى المقارنة بين القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . ذلك أن قيمة السعادة بشرية : فى الفكر والاتجاه والتأنق الفنى والتأمل الفلسفى والرؤيا للمستقبل والمثليات والكفاح لهذه الأشياء جميعها . وجميع هذه الصفات ذاتية فى ذات انفسنا . وهى بشرية ليس لها قيمة اجتماعية . ولكن قيمة السرور اجتماعية فى الأغلب لأنها تنشأ من اعتبارات المجتمع . لأنى أسرّ مثلا باقتناء أتومبيل إذ ان مثل هذا الاقتناء قد عده المجتمع تبريزاً وتفوقا . أو أسرّ بالثراء

لأن المجتمع يعد الثراء تفوقا ونجاحا .

وهل نستطيع أن نتعلم كيف نكون سعداء ؟

أجل . نستطيع ذلك بأن نجعل وجداننا فوق غرائزنا أى نجعل التعقل فوق الشهوات . وكذلك بأن نتعلم ونهتم بما هو أسمى من همومنا الشخصية . نهتم بالناس والسياسة والهند والامبير يالية والنجوم والكواكب والحيوان والنبات ومستقبل الصحة والحيوان والنبات ومستقبل البشر وماضى الأحياء ، والتطور الماضى والقادم ، والمرض والصحة والدين والأدب والفلسفة . وهذه الاهتمامات المتعددة تبسط لنا آفاقا رحبة للتفكير فلا تحدنا حدود الشهوة ولا تستعبدنا الغرائز فى اهتمامات مادية غايتها لذة الطعام ومتعة اللباس والمسكن واقتناء مواد لا تحصى بل لاتفتأ تبعث فينا الرغبة فى الزيادة . هذه الرغبة التى تجهدنا بل أحيانا نسير فيها سادرين ذاهلين وقد نموت قبل أواننا ونحن لاندرى أننا كنا مسوقين باعتبارات اجتماعية هى أبعد ماتكون من السعادة .

قلنا فى أول هذا الفصل ، أننا نسعد بالفكرة او الإيمان او الرؤيا أو الأمل إذاكان أحد هذه الأربعة يحفزنا إلى الكفاح . وهنا نحتاج إلى تفصيل موجز : ذلك أن الطاقة النفسية لا تطيق

الحبس. والكتم والكفاح ولذلك فإن لشأن ما، أى شأن نعتقد أنه حسن، يفتح لنا قناة تنصرف اليها الطاقة . أما إذا حبست هذه الطاقة فانها تحدث لنا فى الحالات الخفيفة نيوروزا اى ضيقاً عاطفياً . وفى الحالات الخطيرة تحدث سيكوزا أى جنوناً .

ولذلك كثيراً ما نجد الشاب مضطرباً متشائما تسوده هموم مبهمة لا يعرف مأتاها فاذا انضوى إلى حزب سياسى مثلا انطلق فى تفاؤل يعمل ويسرّ بعمله . وهو سعيد بهذا الكفاح الذى يبعث فيه نشاطا ويحمله على الدرس والخدمة والتعاون ويخرجه من أنانيته . وهو هنا يشعر بالسعادة .

وعلى هذا نقول إن السعادة تحتاج إلى كفاح . وسلام النفس لا يعنى ركوداً وجموداً بل هو أحرى بان يبعث نشاطا وهمة وانجازاً لأمل او تحقيقاً لرؤيا ، بحيث يكون هذا الأمل او هذه الرؤيا عند احدنا أسمى وأعم من همومه الشخصية الذاتية لأنها بسموها وعموميتها تكسبه كرامة وتجعل لحياته معنى بل معزى . وهنا السعادة .

تعقيب على السعادة

كنا تقريبا ننشد السعادة ونتحدث عنها كما لو كانت من البديهيات التى لا تستحق مناقشة لأننا نعد السعادة خير مايطلب فى هذا الوجود .

ولكننا نختلف كثيرا فى معنى السعادة . وأن كان المألوف أننا نعنى بهذه الكلمة الأمن من الكوارث وراحة البال ، أى سلام النفس والصحة .

ولكن إذا كان هذا هو كل مانعنى بالسعادة فان كثيرين ، بل كثيرين جداً ، يحققونها . ومع ذلك لايجدون منا غير الاحتقار ، لاننا لا نحسدهم على حالهم هذه . إذ هى تشبه الركود والذهول بحيث تستحيل حياتهم نباتيـــة خالية من التفزز والتنبه ، ثم مايعقب هذا من تبلد ذهنى يشبه الجمود .

والرجل الذى تنزل به الكوارث المتعددة هو — فى القيم الانسانية كالذكاء والاختبار والتعلم — خير من السعيد الذاهل الذى لم تنبهه قط نكبة فادحة تجعله يقف ويتساءل : «أين موقفى من هذا العالم ؟ »

والسعداء الذاهلون كثيرون جداً ، وهم يستغرقون فى

المسرات، وينشدون الثراء، ويبلغونه ويحققونه ... وقد يعيشون في القصر الفخم، ويأكلون أطيب الطعام، ويتنقلون في الفصول من المصيف إلى المشتى، ويجدون حاشية من الخدم، كما أن شهواتهم تجد الاشباع الدائم، وراحتهم رفاهية، ورفاهيتهم ترف وبذخ.

ولكن قليلا من الحديث مع أحدهم يوضح أن سعادتهم إنما هي ذهول وخمود وتبلد، وأنهم لو كانت الأقدار قد رفقت بهم لكانت قد كرثتهم بنكبة فادحة، توقظهم من سباتهم.

وهؤلاء السعداء الذاهلون يجدون في الكائنات الدنيا ما هو أسعد منهم. فان الديدان والحشرات مثلا أسعد، لأنها أكثر ذهولا منهم، وهي أيضا أبعد عن الكوارث.. اذ أقل ما يقال فيها إنها لا تعرف الكوارث حتى وقت وقوعها بها.

وعندي أن مثل هذه السعادة يجب الا ننشدها.. لأن السعادة العليا التي هي صفة الانسان العالي هي الوجدان. وكلما زاد الوجدان زادت السعادة، ولكن ... زادت الكوارث، والهموم والاهتمامات أيضا.. ونعني بكلمة الوجدان هنا مايسميه غيرنا «الوعي»

والناس في أغلب أحوالهم يعيشون بالتصوير الحسي لأنه

هو التصوير البدائى بل الحيوانى الذى لايحتاج إلى مجهود . ولكن الرجل الراقى يدرب نفسه على التصوير الوجدانى . فنحن مثلا نتأثر عند ما نرى طفلا قد وقع من الترام فقطعت ساقه . . ولكننا حين نقرأ أن ثلاثة ملايين هندى ماتوا بالقحط، لانكاد نقف عند سطور هذا الخبر كى نتصور هول هذه الكارثة ..! فالحادث الأول سريع إلى حواسنا لأننا قريبون منه ، وتأثرنا لذلك سريع ، ولكن الحادث الثانى يحتاج إلى مجهود عقلى حتى نتأثر به .

وعلى هذا القياس نقول إن السعادة نوعان : الأول هو سعادة الحواس ، أى المسرات الحسية المادية ، أما الثانى فهو سعادة الوجدان، أى سعادة التعقل والتصور ، السعادة الفكرية. وهذه السعادة الفكرية لاتبالى الكوارث ، بل أن الكوارث تخصبها ، وتزيدها نضجاً وإيناعا ، بحيث أننا عندما تمر بنا السنين ننظر إلى التقلبات والنكبات التى نزلت بنا كما لو كنا قد عشنا حيوات عديدة بدلا من حياة واحدة . . وكثيراً ما أعود بالذكرى إلى بعض الصدمات والكوارث والأحزان التى مرت بى فأجد كلا منها كان بمثابة الدرجة التى ارتقيت عليها صاعداً فى سلم الحياة لأنها زادت وجدانى فزادت تعمق فى الحياة وتوسعى

فى الاختبارات وأكسبتنى همومآ قد استحالت إلى اهتمامات لا أرضى بالنزول عنها الآن .

ولذلك أستطيع أن أقول إن الحيـاة السعيدة هى الحياة الحيوية التى تزيد فيهادرجةالحياة حدة ويقظةوتنبهاأى وجدانا. والهموم والازمات والكوارث تجعل حياتنا لذلك حيوية . . وهى تزيدنا سعادة . أما الأمن من الكوارث والمعيشة الحسية والمسرات فتجعلنا نعيش فيمايقارب الذهول،فلا نتنبهولانحتد أى لانتعقل فى حدة ودقة وإمعان . ولو كانت هذهالسعادة هى ما يجب أن نطلب لكان أدنأ الحيوانات أسعد منا . بل عندئذ كنا نكون أسعد بالنوم منا باليقظة ، وبالموت منا بالنوم .

ولذة الدنيا هى فى النهاية : اختباراتها ، ومشاكلها ومآزقها وأزماتها . ثم تحدى كل هذه الأشياء بالوجدان والتعقل . وذلك الذى يبغى السعـادة فى معناها الانسانى العالى ، يجب أن يزيد حياته حيوية لا أن ينقص هذه الحياة بالاقتصار على المعيشة الحسية ، على المسرات ، هذه هى السعادة التى تستحق أن ننشدها . السعادة هى الفهم بالوجدان والتعقل .